كلمات روحية للحياة

الجزء الخامس

القمص لوقا سيداروس

~~~~~~~~

فهرست

١- يوم الخمسين وعمل الروح القدس

٢- ما أشبه اليوم بالأمس

٣- النساء والزينة

٤- العلاقات الإنسانية فى حياة القديس بولس الرسول
~~~~~~~~

يـوم الخمسين وعمل الروح القدس

- «رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ» (إش ٦١ : ١).
- «أَسْكُبُ مِنْ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ» (أع ٢ : ١٧).

هذه النعمة التى سكبها الرب على البشر لا تُدانيها نعمة، نعمة وعطية الروح القدس للإنسان. انسكبت النعمة سكباً من السماء – كانسكاب المطر على الأرض العطشى.. بدون الماء لا توجد حياة.. بل قفر موحش وصحراء بلا حياة. هكذا تكون النفس بدون الروح القدس.

+ «مَنْ آمَنَ بِي... تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ». (يو ٧ : ٣٨). الروح الذى قبلناه وصار ساكناً فينا.. يتفجر كأنهار ماء حياة من باطننا.. فيروى ويغنى وينمى ويغير وجه القلب. كما تغير ينابيع المياه وجه الأرض.

الروح يرتاح فى القلوب المتواضعة.. كجريان المياه فى الأودية المنخفضة. أما المتشامخ الروح والمتكبر والمعتد بذاته، فإنه يكون خاوياً خالياً من الروح.. لأن الأماكن المرتفعة لا يجرى إليها النهر.

القلب المتواضع والمنكسر يصير مسكناً للروح. الروح القدس هو روح المسيح الوديع والمتواضع القلب. لذلك لا يساكن المتكبرين.. لأن «اللهَ يُقَاوِمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَمَّا الْمُتَوَاضِعُونَ فَيُعْطِيهِمْ نِعْمَةً» (١بط ٥ : ٥) ويسكن فيهم.

+ «يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ» (يو ١٤ : ٢٦). الذى يُخضع نفسه لروح الله.. ويُطيع بلا شرط ولا يعاند فإن الروح يعلمه كل شئ ويحكّمه بحكمة إلهية ليست من هذا العالم. تعليم الناس وعلوم العالم شئ أما ما يعلمه الروح فهو شيئ آخر.. الحكمة البشرية شئ وحكمة الروح شيئ آخر.

+ قال الرب فى المزمور (٣٢ : ٨) «أُعَلِّمُكَ وَأُرْشِدُكَ الطَّرِيقَ الَّتِي تَسْلُكُهَا. أَنْصَحُكَ. عَيْنِي عَلَيْكَ». فالروح يفحص كل شئ حتى أعماق الله، فهو الذى ينير القلب والذهن والبصيرة من الداخل ويكشف أمام العين معرفة الأسرار. الذى يخضع للروح القدس، يعمل الروح فى داخله إنارة إلهية، فيعرف سر الإيمان، ويصير له دراية بسر المسيح لأنه «لا أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ يَسُوعُ رَبٌّ إِلاَّ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ» (١كو ١٢ : ٣). فالروح يشهد للمسيح من داخل القلب ويقنع القلب ويغنيه بالإيمان.

+ أسرار الإيمان المسيحى بدون فحص العقل يُعلّمُها الروح للعابد.. أسرار الصلاة يُعلّمها الروح.. هو معلم الصلاة «لأَنَّنَا لَسْنَا نَعْلَمُ مَا نُصَلِّي لأَجْلِهِ كَمَا يَنْبَغِي. وَلكِنَّ الرُّوحَ نَفْسَهُ يَشْفَعُ فِينَا

بِأَنَّاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا» (رو ٨ : ٢٦).. هو الذى يُشعل نار القلب محبة فى المسيح. وهو الذى يفيض كلام الصلاة ويفعم المشاعر بالحق والحب.

+ الروح هو الذى يُحبب للنفس كل ما هو صالح. وهو الذى يحفِّز الضمير ليقاوم الانفعالات الشريرة.. الروح هو الذى يُعزِّى الإنسان عن تغرُّبه عن وطنه السماوى.. الروح هو الذى يُهوِّن آلام الغربة.

+ الروح القدس يُعلِّم الإنسان فى الباطن ويجمله «بِكُلِّ أَذِرَّةِ التَّاجِرِ» (نش ٣ : ٦).. هو الذى يُزيِّن النفس بالصبر والاحتمال.

+ الروح هو الذى صنع النسَّاك، وضبط حياتهم الفائقة على الطبيعة فى سلوكها، بضبط الروح فى الحياة النسكية الشاقة، وهو الذى قادهم فى دروب الاتضاع بحذق وحكمة إلهية، دون الجنوح إلى العيوب النفسية والخلل الذهنى، أو انغلاق النفس أو التعالى.

+ الروح القدس هو الذى عمل فى الرسل الكارزين بقوة الإنجيل لتغيير العالم ورد الضالين.

«وَيَكُونُ الْجَمِيعُ مُتَعَلِّمِينَ مِنَ اللهِ» (يو ٦ : ٤٥).

لا يحتاج الإنسان إلى معرفة الناس وتعليم الناس.. بل تُعلِّمه المسحة التى له من القدوس.. لا يحتاج إلى كثرة الأسئلة وإلى إشغال العقل والفكر الجسدى فى السماويات، بل بالروح يدرك الروحيات.

الروح القدس لا يُعطَى بكيل.. بل يفيض ويزيد. يملأ إلى كل الملء فيض الصلاة وسخاء العطاء، وقامات القديسين تشهد على ذلك.

الروح يهبُّ حيث يشاء بحسب إرادته الإلهية. أفكار الروح تعلو فوق حسابات الناس وتدبير الناس. حين يهبُّ يُسيل المياه.. حين يملأ القلب تجرى الدموع كالنهر.

هبوب الريح العاصف كان يوم الخمسين ملموساً محسوساً مع ألسنة النار المنقسمة. مازال الروح يهب وسيظل إلى يوم مجئ المسيح. والنار التى أُلقيت على أرض البشر مازالت تضطرم.

لا حدود للريح ولا حدود للنار.. هذا هو قصد الله.. جيل يعبر وجيل يجئ.. والروح هو العامل ونار الروح تشعل القلوب من جيل إلى جيل.

الروح يُعلِّم بلا توقف، وعلى الإنسان أن يستلهم الروح ويخضع طائعاً.. يرتقى الإنسان بالتعليم وينتقل من طور إلى آخر.. هكذا نما القديسون فى الفضيلة والمعرفة بقدر ما أعطاهم الروح من علم إلهى.

الروح يخلق القلب والكيان

«إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ» (٢كو ٥ : ١٧). الروح هو الذى يصنع الخليقة الجديدة. قلباً نقياً اخلق فىَّ يا الله. من العدم يخلق ومن لا شئ يُصوِّر.. مما ليس بظاهر.. من الضعف الشديد يخلق قوة. «بِضَعْفِ الْجَسَدِ بَشَّرْتُكُمْ... بِبُرْهَانِ الرُّوحِ وَالْقُوَّةِ» (غل ٤ : ١٣، ٢كو ٢ : ٤). «لَمْ يَكُنْ لِجَسَدِنَا شَيْءٌ مِنَ الرَّاحَةِ» (٢كو ٧ : ٥) ولكن الروح كانت متأججة.

«وَأَنْزِعُ قَلْبَ الْحَجَرِ مِنْ لَحْمِكُمْ وَأُعْطِيكُمْ قَلْبَ لَحْمٍ» (حز ٣٦ : ٢٦)، وشتان بين الحجر واللحم. من أين الحاسيات المتناهية فى الرقة والحنو، من أين حاز بولس الرسول كل هذا، بعد تاريخ القلب الحجرى والقسوة حتى القتل، وقسوة التعذيب ومنظر رجم اسطفانوس وهو راضٍ ومبارِك؟ الروح يخلق ويدعو الأشياء غير الموجودة للوجود داخل النفس البشرية.. شئ مهول لا تدركه العقول.

إذا عمل الروح فى داخل الإنسان يحوِّل جفافه إلى جنة وحين تجرى أنهار الماء الحى.. يا للإبداع فى الخلق من كل ما تشتهى النفس أن ترى وتشبع!

«لِيَأْتِ حَبِيبِي إِلَى جَنَّتِهِ... أُخْتِي الْعَرُوسُ جَنَّةٌ مُغْلَقَةٌ» (نش ٤ : ١٦ ، ١٢) أبدعها الروح القدس خالقها. الطاقات التى تتفجر مثل فيضانات فى الداخل، من يستطيع أن يصفها من جهة المحبة القلبية التى هى أقوى القُوى، لظى نار الرب. ومن جهة النشاط والغيرة على خلاص النفس. ومن جهة البذل والخدمة وسكب النفس. ومن جهة الإيثار وتفضيل الآخر. ومن جهة العطاء والسخاء. ومن جهة التقديس وتكريس الكل.. أنهار ماء حية.. قوى المقاومة لا تستطيع الوقوف فى وجهها.. أنهار تجرف الكل ولا تتوقف عند حد.

الخليقة الجديدة لها إمكانيات فائقة. لا يمكن أن تقارن مع ضعف الطبيعة الساقطة «أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي» بروحه القدوس. (فى ٤ : ١٣).

الــروح المعزى

«كَإِنْسَانٍ تُعَزِّيهِ أُمُّهُ هكَذَا أُعَزِّيكُمْ أَنَا، وَفِي أُورُشَلِيمَ تُعَزَّوْنَ. يَقُولُ الرَّبُّ» (إش ٦٦ : ١٣). أورشليم الجديدة هى كنيسة الله التى اقتناها بدمه.. التعزية فى داخلها بلا حدود «أَحْبَبْتُ مَحَلَّ (جمال) بَيْتِكَ... يَرْوَوْنَ (سنشبع) مِنْ دَسَمِ بَيْتِكَ» (مز ٢٦ : ٨، ٣٦ : ٨).

خبز الحياة فى الكنيسة أعدَّه الروح القدس. ماء الحياة ينبع من الكنيسة من جرن المعمودية ومن كأس الإفخارستيا.. سواقى الله ملآنة ماء.. ينابيع تفيض إلى حياة أبدية.. تفيض من أعماق القلب وتجرى كدموع على المآقى (مجاري الدُّموع من العين).. تُطهِّر وتغسل وتنقى وتعمل على الصفاء.. ندخل إلى جنة الكنيسة وقد أغناها الروح، لأن الله هو الذى ينُمِّى زرعها.. مملوءة من الخيرات، غروس الزيتون تنمو فيها.. زيت الروح ينير سراجها. شبانها وبناتها زينة القداسة تجعلهم غروس الروح.. كهنتها يلبسون البر: دهن الروح وقنينة الميرون.

روح العزاء كالطيب النازل على رأس الكنيسة، يمسح فى كل يوم العذارى والشبان والشيوخ معاً.

التسبيح فى الكنيسة أنغام منسجمة من فرق التسبيح التى ألفّها الروح القدس. الروح هو روح الإلهام صانع المواهب، مواهب التسبيح فى الكنيسة هى ينبوع العزاء لكل النفوس.

«سَبِّحوا الرَّبَّ فإنَّ... لإلَهِنا يَلذُّ التَّسْبيحُ» (مز ١٤٦ أجبية).

«سَبِّحوا الرَّبَّ تَسْبيحاً جَديداً» (مز ٩٧ أجبية) هذا هو مزمور الأعياد فى الكنيسة. الروح يحرك نفوس المسيحيين ويُغنى الكنيسة بعزاء التسبيح. المؤمنون فى الكنيسة لا يحضرون كمستمعين للتسبيح بل مشاركين. ليس فى الكنيسة أماكن للمتفرجين.. بل الكل شركاء فى النعم والمواهب. الشعب له دور كبير فى العبادة وله ألحان ومردات تغطى كل أنواع الخدمات الليتورجية.

+ مواهب متنوعة يعطيها الروح فى الكنيسة، كلها عطايا وهدايا. وأنواع خدم ينشئها الروح ويقيم عليها من يعطيهم المواهب لتكميلها. المعطى يعطيه الروح روحاً وسخاءً، والراحم يعطيه روحاً وسروراً.

روح العزاء

الإنسان المسيحى يواجه العالم وروح العالم بكل ما فيه من ظلم وظلمة، وقبح ونجاسة، وكبرياء، وجميع أنواع الخطايا. وهو بالروح القدس الساكن فيه يشهد ضد العالم وروح العالم، ليس بالكلام ولكن بالسلوك بالحق.

وهذه المواجهة هى التى قال عنها الرب «إِنْ الْعَالَمُ يُبْغِضُكُمْ» (١يو ٣ : ١٣). وهذا هو سبب الاضطهاد المعلن والمخفى. وقد سأل الرب يسوع الآب وقال: «لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ» (يو ١٧ : ١٥). وبحسب ما هو مكتوب: «الَّذِي فِيكُمْ أَعْظَمُ مِنَ الَّذِي فِي الْعَالَمِ» (١يو ٤ : ٤). وقد تأكد للآباء القديسين أن هذه الحرب «حَرْبٌ لِلرَّبِّ مِنْ دَوْرٍ إِلَى دَوْرٍ» (خر ١٧ : ١٦). وأينما يوجد من يؤمن بالمسيح ويحيا بالروح، توجد هذه الحروب الروحية، وبكل تأكيد إن مصارعتنا

ليست مع لحم ودم.. وبكل تأكيد فإن الغلبة فى النهاية تكون لحساب المسيح، الذى قام من الأموات وأبطل عز الموت.

على أن هذه الحرب الدائرة والمستمرة لا نجوزها بدون عزاء الروح المعزى الساكن فينا. فإن وقع علينا ظلم. فمن هو الذى يستطيع أن يقبل الظلم؟ إن الظلم قاسٍ على النفس أيما قسوة. فالمظلوم يجوز فى مرارة نفس لا يمكن التعبير عنها. ولكن الروح القدس فى الداخل يعمل عمله المعزى، ويجعل رسم الصليب أمام عين الإنسان، ويكشف له سر الذى صُلب عن ضعف وهو القوى، وسر الذى «ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ» (إش ٥٣ : ٧).. ويقود النفس إلى التعمق فى سر هذا الظلم الذى وقع على المسيح، فقبله بارادته وحمل الخطايا وهو غير الخاطئ، وبذل نفسه للموت وهو غير المائت.

ثم يقنع النفس بقناعة كاملة أن «لَيْسَ التِّلْمِيذُ أَفْضَلَ مِنَ الْمُعَلِّمِ، وَلاَ الْعَبْدُ أَفْضَلَ مِنْ سَيِّدِهِ» (مت ١٠ : ٢٤)، «لأَنَّهُ إِنْ كَانُوا بِالْعُودِ الرَّطْبِ يَفْعَلُونَ هذَا، فَمَاذَا يَكُونُ بِالْيَابِسِ؟» (لو ٢٣ : ٣١). ويلح الروح على النفس أن تتدرب على هذا المنهج تابعة مخلصها، ويسكب عزاءه الفائق فتتذوق النفس حلاوة العزاء، وشيئاً فشيئاً تخضع لإيحاءاته الإلهية، وتخضع الذات التى تطالب بحقها وتثير فى النفس إحساسات سلبية ومُرَّة، إما بصغر النفس واليأس فى حال عدم استرداد حقها، أو رغبة الانتقام من الظالم، والتفكير فى كيف تنتقم لنفسها عوض الظلم الذى لحقها.

هنا يكون عزاء الروح القدس، يلغى تماماً السلبيات فى القلب والفكر، ويعوض النفس عزاءً روحياً فائقاً لا يعرفه الناس، لأن عمل الروح السرىّ يكون مثل قول إشعياء «مثل ولد تُعزيّه أمه». وهكذا يكون الأمر فى باقى جهادات حفظ الإنسان نفسه من النجاسات التى تملأ العالم. ومن الحروب فى قسوتها وإغراءاتها، وتزيين الشيطان للخطية ومغالاته فى تضخيم عدم القدرة على الوقوف حيالها.

ما أشبه اليوم بالأمس

«وَإِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ أَقْبَلَ، وَنُورٌ أَضَاءَ فِي الْبَيْتِ، فَضَرَبَ جَنْبَ بُطْرُسَ وَأَيْقَظَهُ قَائِلاً: قُمْ عَاجِلاً. فَسَقَطَتِ السِّلْسِلَتَانِ مِنْ يَدَيْهِ. وَقَالَ لَهُ الْمَلاَكُ: تَمَنْطَقْ وَالْبَسْ نَعْلَيْكَ. فَفَعَلَ هكَذَا. فَقَالَ لَهُ: الْبَسْ رِدَاءَكَ وَاتْبَعْنِي. فَخَرَجَ يَتْبَعُهُ. وَكَانَ لاَ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي جَرَى بِوَاسِطَةِ الْمَلاَكِ هُوَ حَقِيقِيٌّ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّهُ يَنْظُرُ رُؤْيَا. فَجَازَا الْمَحْرَسَ الأَوَّلَ وَالثَّانِيَ، وَأَتَيَا إِلَى بَابِ الْحَدِيدِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَانْفَتَحَ لَهُمَا مِنْ ذَاتِهِ، فَخَرَجَا وَتَقَدَّمَا زُقَاقًا وَاحِدًا، وَلِلْوَقْتِ فَارَقَهُ الْمَلاَكُ. فَقَالَ بُطْرُسُ، وَهُوَ قَدْ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ: الآنَ عَلِمْتُ يَقِينًا أَنَّ الرَّبَّ أَرْسَلَ مَلاَكَهُ وَأَنْقَذَنِي مِنْ يَدِ هِيرُودُسَ، وَمِنْ كُلِّ انْتِظَارِ شَعْبِ الْيَهُودِ» (أع ١٢ : ٧ – ١١).

لعل هذه القصة العجيبة والمؤثرة جداً تُلقى ظِلاً على الحقيقة التى عاشتها نفوس الأبرار فى سجن الجحيم، فهذا مجرد ملاك الرب، ما أن دخل إلى بيت السجن حتى تبدد الظلام وأضاء نور فى بيت السجن.

أما حينذاك، فالرب يسوع بذاته الذى هو نور الآب، نور من نور، والساكن فى النور الذى لا يُدنى منه، عندما نزل إلى الجحيم هربت قوات الظلمة، وأضاء وأشرق نور فى بيت السجن. أما السلاسل والقيود فسقطت فى الحال لأن مُحرِر النفوس، مُخلِّص المسبيين قد اطلع على عبيده «الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ وَظِلاَلِ الْمَوْتِ» (لو ١ : ٧٩).

والنفوس المُثقَّلة بالنوم العميق، غفلة الموت وسلطانه، انتفضت إذ سمعت صوت العريس، أيقظها نور وجهه وبهاء سلطانه، استيقظى، «قُومِي اسْتَنِيرِي» (إش ٦٠ : ١)، أُنفضى تراب القبور، هوذا جاء فادى نفوس عبيده ليأخذهم إلى نور قيامته.

أما عساكر الظلمة، الحُرَّاس الأشرار، فأنت تراهم مرتعدين، منطرحين، عند قبر يسوع عندما جاء ملاك الرب من السماء يدحرج الحجر، «مَنْظَرُهُ كَالْبَرْقِ... فَمِنْ خَوْفِهِ ارْتَعَدَ الْحُرَّاسُ وَصَارُوا كَأَمْوَاتٍ» (مت ٢٨ : ٣ ، ٤)، فما بلك بحراس الجحيم وشياطين الظلمة، ارتاعوا، مَلَكَهُم ذعر وخوف لا ينتهى.

+ قيل إن الملاك أمسك بيد بطرس واقتاده حتى أخرجه من السجن، من الباب الخارجى. ما أروع الأيقونات التى تصور ما صنعه الرب، أيقونة نزول المسيح إلى الجحيم:

– الرب نازل إلى الجحيم بالصليب،

– نفوس الأبرار مُتلهِّفة لرؤياه،

– آدم أبونا فى أسفل الأيقونة، والرب نازل إليه يُقيمه مُمسِكاً بيده،

– يد آدم صغيرة كيد طفل فى يد أبيه،

– عينا الرب متجهة نحو آدم فى شفقة وحنان أبوى أبدى، بينما عينا أبينا آدم لا تجسُران أن تتطلعا إلى فوق. بل كابن وُجد من أبيه بعد سنين هذا عددها،

– بينما يقف فى الأيقونة نفوس كثيرة جداً تكسو وجوههم بُشرى القيامة وفرح الانطلاق، ونور وجه يسوع منعكس عليهم جميعاً حتى يمكن للناظر أن يراهم جميعاً فى نور وجهه.

ما أبدعها أيقونة، رسمها الفنان الأرثوذكسى بحاسته الروحية، وإلهام الحياة والعبادة فى الكنيسة المجيدة.

النساء والزينة

«لاَ تَكُنْ زِينَتُكُنَّ الزِّينَةَ الْخَارِجِيَّةَ، مِنْ ضَفْرِ الشَّعْرِ وَالتَّحَلِّي بِالذَّهَبِ وَلِبْسِ الثِّيَابِ، بَلْ إِنْسَانَ الْقَلْبِ الْخَفِيَّ فِي الْعَدِيمَةِ الْفَسَادِ، زِينَةَ الرُّوحِ الْوَدِيعِ الْهَادِئِ، الَّذِي هُوَ قُدَّامَ اللهِ كَثِيرُ الثَّمَنِ. فَإِنَّهُ هكَذَا كَانَتْ قَدِيمًا النِّسَاءُ الْقِدِّيسَاتُ أَيْضًا الْمُتَوَكِّلاَتُ عَلَى اللهِ، يُزَيِّنَّ أَنْفُسَهُنَّ خَاضِعَاتٍ لِرِجَالِهِنَّ، كَمَا كَانَتْ سَارَةُ تُطِيعُ إِبْرَاهِيمَ دَاعِيَةً إِيَّاهُ سَيِّدَهَا. الَّتِي صِرْتُنَّ أَوْلاَدَهَا، صَانِعَاتٍ خَيْرًا، وَغَيْرَ خَائِفَاتٍ خَوْفًا الْبَتَّةَ» (١بط ٣ : ٣ – ٦).

فى صميم الخِلقة، تميل النساء، إلى التزين وإلى الظهور بمظهر الجَمال.. هذه طبيعة، وهى رأس زاوية تقف عند مفارق الطرق فى تدبير الحياة.. فلا يمكن بصورة من الصور أن تتغيّر الطبيعة!!

ولكن إن انحازت النفس إلى العالم فجرفها فى تياراته فإن المظهر يصير كل رأس مالها.. وتبتدئ الزينة الخارجية تملك على الكيان.. وعندئذ تتبارى مَلَكات الإنسان وإمكانياته لتخدم الخارج والجسدانيات.. فتُكرِّس كل الطاقات المادية والفكرية والعلمية لفنون الجسد وزينة الخارج، الذى يبلى يوماً ولا بديل. ومجرد نظرة بسيطة إلى ما هو موجود فى عالم الموضات من اللبس والحلى والماكياج والعطور وتصفيف الشعر.. شئ رهيب حقاً لا يقع تحت حصر.. تيار جارف وأمواج مُزبدة تجرف الملايين بل ومئات الملايين. ولا يستطيع أحد أن يقف فى وجه تلك التيارات المخيفة، فأقل ما يصفه به العالم هو الجنون وعدم الواقعية وإنه يحيا فى الوهم والخيال.

بينما أولاد الله إذ قد اكتشفوا زوال أباطيل هذا العالم الخدَّاع، واستنارت بصيرتهم فأدركوا السماويات، صرفوا العمر كله يعتنون بالداخل ومجد الداخل، كمثل العذراء القديسة التى قيل عنها «كُلُّ مَجْد ابْنَةِ الملِكِ مِنْ داخِل. مشْتمِلةٌ بأطرافٍ مُوَشّاةٍ بالذَّهَبِ، مُزَيَّنَةٍ بأَشْكالٍ كَثيرةٍ» (مز ٤٤ أجبية).. مجد لا يوصف.. ولا يعرفه العالم.

قُلْ إن الاهتمام الزائد بالزينة الخارجية هو تغطية لعوار الداخل الذى تشمئز منه النفس. ألم يكن هذا حال الفريسيين الذين قال لهم الرب: «تُشْبِهُونَ قُبُورًا مُبَيَّضَةً تَظْهَرُ مِنْ خَارِجٍ جَمِيلَةً، وَهِيَ مِنْ دَاخِلٍ مَمْلُوءَةٌ عِظَامَ أَمْوَاتٍ وَكُلَّ نَجَاسَةٍ (نتانة)» (مت ٢٣ : ٢٧).

فالنزوع إلى التزين الخارجى والانحصار فيه، يعنى عدم الالتفات للداخل بل وإهماله، بل وفى أحيان كثيرة هو محاولة للتغطية لما قد يُخجل منه إذا انكشف.

لذلك جاءت الوصية صريحة للنساء القديسات «لاَ تَكُنْ زِينَتُكُنَّ هى الزِّينَةَ الْخَارِجِيَّةَ... بَلْ إِنْسَانَ الْقَلْبِ الْخَفِيَّ فِي الْعَدِيمَةِ الْفَسَادِ، زِينَةَ الرُّوحِ الْوَدِيعِ الْهَادِئِ ».

الزينة المختفية بالروح.. فى القلب الخفى عن عيون الناس، ولكن مستعلنة لدى الله فى الإنسان العديم الفساد، لأن كل ما هو خارجى يفسد، لأن إنساننا الخارج يفنى ولا محالة!!

زينة الروح الوديع.. وإن فطنت إلى هذه الفضيلة النادرة والغالية جداً، ليس قدام الناس بل هى قدام الله كثيرة الثمن.. فكم بالحرى لدى الناس؟

قَلَّ أن تجد امرأة تتحلى بالوداعة والهدوء الروحى.. فإن وجدتها فثمنها يفوق اللآلئ، لأنها مشتراه بدم زكى كريم ومُقدسة فيه!!

أما الصفة الثانية وهى الاتكال على الله، فهى رصيد الزوجة المسيحية.. عليها يؤسس استقرار البيت، فهى لا تتكل على أشياء ومقتنيات ولا على ذراع البشر، بل على الله الحى.. تتكل عليه من كل قلبها، وتسوس بيتها، وتشيع فى أولادها عدم الخوف وعدم القلق وعدم الاضطراب، بإيمانها واتكالها على الله.. تُطيّب قلب زوجها وتُطمئنه.. فهى لا ترهقه بكثرة المطالب فى العالميات ولا تدفعه إلى الأطماع لتلبية رغباتها، بل اتكالها على الله هو كفايتها وكنزها.

«يُزَيِّنَّ أَنْفُسَهُنَّ بزِينَةَ الرُّوحِ ولباس الحشمة خَاضِعَاتٍ لِرِجَالِهِنَّ»

أما من جهة لباس الحشمة، فهذا يأتى من الإدراك الروحى، فالإنسان الروحى «يَحْكُمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ لاَيُحْكَمُ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ» (١كو ٢ : ١٥). فلا يوجد زى يقال له الزى المسيحى.. ولكن تدرك المرأة المسيحية بروحها وتميز بين ما يليق وما لا يليق، وما يوافق ومالا يوافق، بحسب ما هو مكتوب «كُلُّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي، لكِنْ لَيْسَ كُلُّ الأَشْيَاءِ تُوَافِقُ» (١كو ١٠ : ٢٣).

+ والإدراك الروحى والحياة فى المسيح، يجعل الإنسان يحرص على نقاوة قلبه وطهارة جسده، عالماً أن الجسد هو هيكل الروح القدس الساكن فينا «أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللهِ، وَرُوحُ اللهِ يَسْكُنُ فِيكُمْ؟» (١كو ٣ : ١٦). وأيضاً يقول: «مَجِّدُوا اللهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمُ الَّتِي هِيَ للهِ» (١كو ٦ : ٢٠).

فنحن أعضاء جسد المسيح وأعضاءنا أعضاء جسده. لذلك لباس الحشمة يليق بمن أدركوا أن أجسادهم ملك للذى اشتراهم. فالخلاعة من أى نوع أو التشبه بأهل العالم مجاراة للمجتمع لا تليق بأولاد الله.

فى تاريخ المسيحيين الأوائل، لما ألقوا إحدى الشابات فى ساحة لثور وحشى بسبب إيمانها بالمسيح ومزقها الثور بقرونه، كانت تلملم ثيابها لتستر نفسها غير عابئة بالموت. لأن عفتها وحبها للقداسة كانت أغلى من الحياة (الشهيدة بربتوا).

والقصص كثيرة جداً التى تؤكد أن المسيحيات منذ الأيام الأولى كن مثالاً لقداسة السيرة والمظهر الذى يليق بأولاد الله. والشهيدات العفيفات: دميانة وبربارة ويوليانا صرن نموذجاً لملايين تبعن سيرتهن الطاهرة وتمثلن بهن.

فى ستينيات القرن الماضى وردت إلى مصر موضة من أوربا هى لبس الملابس القصيرة وتأثرت بها معظم سيدات وفتيات مصر.. وفى يوم أحد أثناء القداس، فى كنيستنا فى سبورتنج بالاسكندرية، دخلت إحدى السيدات الشابات بفستان قصير جداً بشكل لا يليق وصار اشمئزاز من كثيرين.. وكان من عادتنا إننا فى نهاية القداس بعد انصراف الشعب نقف على باب الكنيسة نسلم على كل الشعب. (كانت أيام جميلة محفورة فى ذاكرتى..) كان يومها أبونا بيشوى هو الذى يصلى القداس وفيما هو يسلم على الشعب لفت نظره هذه الأخت ولم يكن يعرفها.. سلم عليها بمودة وسألها أين تسكن؟ وفى ذات اليوم زار أبونا منزلها هى وزوجها وكان لها بنتين صغيرتين.. صلى معهم وكلمهم بكلمات النعمة، فدخلت إلى أعماق قلوبهم. بعد ذلك بوقت قصير كانت الحياة قد تغيرت وأصرّت هذه الأخت أن تحرق هذه الملابس غير اللائقة.

العلاقات الإنسانية
فى حياة القديس بولس الرسول

انشغلت كثيراً فى هذه الأيام الأخيرة بالرباطات التى ارتبط بها القديس بولس مع الناس، سواء كانوا مخدومين، أو أولئك الذين شاركوه حمل نير الخدمة.. كيف تعامل مع الناس الذين أحبوه حتى ودّوا لو قلعوا عيونهم وأعطوه.. أو الذين كانوا على عكس ذلك.

وتفكرت كثيراً فى كيف ينير لنا هذا النموذج العالى الطريق، فنبنى علاقتنا مع الناس على هذا المنهج على قدر ما نستطيع، لأنه لم تصل قامة فى أجيال الكنيسة مهما بلغت، إلى قامة الرسول بولس ويكفى أن نقرأ ما كتبه هو عن ذاته لأهل كورنثوس ليثّبت إيمانهم فى المسيح ويبعد عنهم تشكيك المشككين فى رسوليته.

+ ما بدا من مشاعر مقدسة وأدب روحى عالى بينه وبين أحد تلاميذه (فليمون) فى الرسالة المملوءة رقة التى أرسلها إليه بيد أنسيموس، فأنسيموس كان عبداً مملوكاً لفليمون.. وقد سرق أغراضاً ومالاً من سيّده، ولما قبض عليه وأودعوه السجن تقابل مع القديس بولس، وهذا كرز له وأحبه فقبل الإيمان وأرسله، القديس بولس إلى فليمون حاملاً الرسالة، وقد ذيّلها القديس بولس بالكلمة إلى فليمون بيد أنسيموس الخادم، فقد انتقل أنسيموس من العبودية إلى أرقى المراتب، إذ صار حراً بل خادماً ليسوع المسيح.

بل إن القديس بولس أوصى به فليمون إذ يقول: اِحسبه كأخ «الَّذِي كَانَ قَبْلاً غَيْرَ نَافِعٍ لَكَ، وَلكِنَّهُ الآنَ نَافِعٌ لَكَ وَلِي» (فل ١ : ١١). وعبَّر عن خدمته لأنسيموس بالتعبير العجيب «الَّذِي وَلَدْتُهُ فِي قُيُودِي». فهو لم يكن خادم كلام.. بل كان يلد الكلمة من أعماقه، ويلد النفوس ويتمخض بها بآلام الولادة الحقيقية كما يقول: «هكَذَا إِذْ كُنَّا حَانِّينَ إِلَيْكُمْ...كَمَا تُرَبِّي الْمُرْضِعَةُ أَوْلاَدَهَا» (٢تس ٨ ، ٧). فأين نحن من كل هذا.. أين التعب ومخاض الولادة وأين الحنان الذى تظهره الأم نحو الأطفال الصغار.. لقد افتقرنا جداً.

نعود إلى طبيعة الصلة بين القديس بولس وتلميذه فليمون التى ظهرت فى هذه الرسالة. لقد كان ممكناً للقديس بولس الرسول أن يأمر تلميذه فليمون.. أن افعل كذا وكذا.. وكان فليمون سيطيع الكلمة بكل تأكيد. ولكن القديس بولس أظهر هذا السلطان الأبوى الذى لم يستعمله، بل صار يستعطف ابنه بكلمات ملؤها النعمة، ويترجاه أن يقبل أنسيموس كشخص بولس الرسول.

وقال لفليمون: «لَمْ أُرِدْ أَنْ... يَكُونَ خَيْرُكَ كَأَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الاضْطِرَارِ (الأمر) بَلْ عَلَى سَبِيلِ الاخْتِيَارِ» (فل ١ : ١٤) وبطواعية وفرح الذى يسامح ويتنازل لأجل يسوع. بل إنه يقول له: «إِنْ كَانَ قَدْ ظَلَمَكَ بِشَيْءٍ، أَوْ لَكَ عَلَيْهِ دَيْنٌ، فَاحْسِبْ ذلِكَ عَلَيَّ». أية مشاعر أبوية مقدسة ورباط روحى عجيب! كيف بنى القديس بولس هذه النفوس باتضاعه الشديد وحكمته العالية.

ثم يمدح فليمون ويقول له: أنت إنسان مريح.. مدح بدون ملق وتشجيع الأب الحنون بدون تفريط فى المشاعر «لأَنَّ أَحْشَاءَ الْقِدِّيسِينَ قَدِ اسْتَرَاحَتْ بِكَ أَيُّهَا الأَخُ».

«أَرِحْ أَحْشَائِي».. قمة فى الرقة والسمو، لقد اعتبر أن قبول العبد لدى سيده سينعكس على القديس بولس بالراحة الداخلية، إذ يرى أولاده يثمرون لله.

+ ثم يعود فيتباسط مع فليمون ويعده بأغلى ما يتمناه فليمون أن يزوره القديس بولس.. لذلك قال له: «أَعْدِدْ لِي أَيْضًا مَنْزِلاً» (مكاناً للإقامة).

يقول له فى بداية الرسالة: «سَامِعًا بِمَحَبَّتِكَ، وَالإِيمَانِ الَّذِي لَكَ... لِكَيْ تَكُونَ شَرِكَةُ إِيمَانِكَ فَعَّالَةً» بهذه الكلمات المعزية ينتقل به من المحبة والإيمان النظرى إلى المحبة العملية أو «الإِيمَانُ الْعَامِلُ بِالْمَحَبَّةِ» (غل ٥ : ٦).. فهو كأنّه يقول: إن قبولك لعبدك أنسيموس ومسامحتك إياه ستشهد لإيمانك ومحبتك.

وحين يطلب من ابنه، يستعطفه كإنسان متقدم فى الأيام، وفى ذات الوقت مسجون لأجل يسوع «إِذْ أَنَا إِنْسَانٌ هكَذَا نَظِيرُ بُولُسَ الشَّيْخِ، وَالآنَ أَسِيرُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ أَيْضًا».. ما هذا الاتضاع الفائق والنعمة المتفاضلة، لأنه إذ يترجى يُظهر الأمور التى تستدر الرحمة! وهو يفعل ذلك كله لا من أجل نفسه بل من أجل أنسيموس.

ويقول لفليمون.. كان ممكناً أن أُبقى أنسيموس معى لكى يخدمنى وأنا مسجون، ولكن فضّلت أن يخدمك أنت.. وكان المفروض أنك أنت ابنى الذى تخدمنى.. لقد ارتقى القديس بولس بالعلاقات بسبب ملء الروح القدس، فتقدست إلى هذا الحد من اللطف والتنازل والحب والإيثار (تفضيل الغير على النفس) وتفضيل الآخر على الذات حتى لو كان هذا الآخر ابناً.

+ ويستطرد ويقول: «فَإِنْ كُنْتَ تَحْسِبُنِي شَرِيكًا، فَاقْبَلْهُ نَظِيرِي».. ومَنْ مِنَ الأبناء الأعزّاء إذا قرأ هذه العبارات من أبيه، بل رسول يسوع المسيح، ولا يرق قلبه وتمتلئ مآقيه (مجاري الدُّموع من العين) بالدمع الغزير؟

ما أجمل هذا السلوك المسيحى حين يصدر من الكبير.. وما أحوجنا الآن أن يوجد مثل هذا مرئياً ومسموعاً فى الحياة العملية!

+ ومن يطالع ختام رسالته إلى أهل رومية، يجد فيضاً من المشاعر المقدسة أفاضها على كثيرين من أولاده دون رياء ولا ملق. بل بصدق الروح مدح أولاده وشجعهم وذكر فضائلهم، ولاسيما الذين اعتبر أنهم أحسنوا إليه شخصياً.

اسمعه يقول: «أُوصِي إِلَيْكُمْ بِأُخْتِنَا فِيبِي، الَّتِي هِيَ خَادِمَةُ الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي كَنْخَرِيَا، كَيْ تَقْبَلُوهَا فِي الرَّبِّ كَمَا يَحِقُّ لِلْقِدِّيسِينَ، وَتَقُومُوا لَهَا فِي أَيِّ شَيْءٍ احْتَاجَتْهُ مِنْكُمْ، لأَنَّهَا صَارَتْ مُسَاعِدَةً لِكَثِيرِينَ وَلِي أَنَا أَيْضًا» (رو ١٦ : ١ ، ٢).

انظر كيف يمجد الخدمة ويمدحها، وكيف يصف هذه الخادمة النشيطة أنها ساعدت كثيرين، ثم يضف نفسه آخر الكل أنها ساعدته هو أيضاً.

فإن قرأت الكنيسة فى رومية هذه الكلمات من القديس بولس، فمن لا يسارع فى شركة هذه الخدمة ومؤازرة هذه الشخصية الممدوحة من القديس بولس؟.. وهكذا ربط القريبين بالبعيدين برباط حب وبذل لأجل تكميل الخدمة.

+ «سَلِّمُوا عَلَى بِرِيسْكِلاَّ وَأَكِيلاَ الْعَامِلَيْنِ مَعِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، اللَّذَيْنِ وَضَعَا عُنُقَيْهِمَا مِنْ أَجْلِ حَيَاتِي» (رو ١٦ : ٣ ، ٤).

لم ينس القديس بولس يوماً أن هذين وضعا حياتهما باستعداد الموت من أجله. وهو إذ يقول هذا ويكرره. يرفع لدى الكنيسة من شانهما وذلك بسبب البذل وقبول الموت من أجل الآخر. وهذه أعظم قيمة استلمتها الكنيسة من شخص المسيح الذى فدانا وبذل نفسه عنا.

لذلك نقول إن المدح لم يأت جزافاً بكلمات وافتخار أهل العالم، بل ببرهان الروح وظهور الصليب واضحاً فى حياة أولاده.

+ «سَلِّمُوا عَلَى أَبَيْنِتُوسَ حَبِيبِي، الَّذِي هُوَ بَاكُورَةُ أَخَائِيَةَ لِلْمَسِيحِ» (رو ١٧ : ٥).

كم تنتعش النفس بالروح حين يذكر القديس بولس واحداً باسمه ويلصق به كلمة حبيبى.. أن يكون المخدوم هكذا مميزاً عند الأب بدون تفريق عن باقى الأخوة، وأن يذكر له أبونا القديس بولس أنه أول من آمن وأنه باكورة الكنيسة كابن بكر له..

شئ جميل ومؤثر ومشجع وله آثار لا تُمحى، سواء فى الشخص أو فى الكنيسة، إذ يخص القديس بولس كل واحد بمآثر وفضائل وحب.

+ «سَلِّمُوا عَلَى مَرْيَمَ الَّتِي تَعِبَتْ لأَجْلِنَا كَثِيرًا» (رو ١٧ : ٦).

لا يُنسى تعب المحبة عند الله، وهكذا عند القديس بولس الرسول رسول يسوع. فإن تعب المحبة ليس بتعب أرضى بجزاء أرضى.. بل هو مسجل فى السماوات مستمد من الذى تعب وبذل ذاته على الصليب محبة فينا.

وهكذا يستمر فى إعطاء السلام الرسولى إلى الأفراد والمجموعات خاصّاً كل واحد بصفة جميلة من صفات الروح: فهذا حبيبى، وهذان كانا فى المسيح قبلى، وهذه تعبت معى كثيراً.. الخ.

وهذا هو واقع الكنيسة إذ اكتملت كأعضاء حسب المسيح الواحد، وهذه ثمار الروح القدس إذا ملأ الكنيسة وأغناها. وعلى هذا المثال يجب أن تكون الرعية فى نظر الراعى، وهكذا يكون فكر الأب إذ ينظر إلى كل أولاده، وإذ الجميع يستحقون الكرامة من قِبَل الله بسبب الإيمان العامل بالمحبة فيهم.

«الْجَمِيعُ تَرَكُونِي»

قال القديس بولس لتلميذه تيوثاوس فى الرسالة: «فِي احْتِجَاجِي الأَوَّلِ لَمْ يَحْضُرْ أَحَدٌ مَعِي، بَلِ الْجَمِيعُ تَرَكُونِي. لاَ يُحْسَبْ عَلَيْهِمْ. وَلكِنَّ الرَّبَّ وَقَفَ مَعِي وَقَوَّانِي» (٢تى ٤ : ١٦ ، ١٧).

أن يتركه الجميع.. هذا أمر صعب على النفس.. هؤلاء هم أولاده الذين ولدهم فى المسيح. واعتنى بهم وربّاهم وخدمهم ووعظهم.. هم أحشاؤه وثمرة تعبه، وقد ارتبط بهم برباط المحبة الروحية كأعظم وأقدس أب. فكونهم يتخلون عنه فى ذهابه ليُحاكم من أجل يسوع، وبأجمعهم، حتى ولا واحد أو أثنين؟

لقد تأثر القديس بولس الرسول أيما تأثر وإلا ما كان كتبها لتلميذه الحبيب، ولكنه استدرك وغلَّب المحبة على النكوص، والأبوة على نزق الصبا، وطلب أن لا يحسب الرب عليهم فعلتهم. هذا السلوك العالى من رسول يسوع المسيح يوقفنا كثيراً أمام أنفسنا، وكيف نسلك إذا صرنا فى شبه هذه الحالة من التخلى من الأحباء وعدم المبالاة.

وكأنّ القديس بولس يقول – إذ التفت إلى الرب الذى وقف معه وقواه – وإن كان أحبائى وأولادى تركونى.. وقد جازت فى نفسى تلك المشاعر، ولكنى لما تَحَقّقْتُ من الذى معى ولم يتركنى، انحَسَرتْ من نفسى تلك المشاعر البشرية، وتقوّت نفسى جداً بمؤازرة المسيح يسوع، الذى تتلاشى مع حضوره كل تعزيات البشر.

+ «أَشْهَدُ لَكُمْ أَنَّهُ لَوْ أَمْكَنَ لَقَلَعْتُمْ عُيُونَكُمْ وَأَعْطَيْتُمُونِي» (غل ٤ : ١٥). هكذا شهد القديس بولس بالمحبة الفائقة التى غمرت الكنيسة فى غلاطية من جهته.. وطبعاً إن خدم القديس بولس شعباً

هكذا بهذه النعمة الفائقة، والروح العالى والبذل والحب، وكل صفاته الرسولية التى تحلّى بها من الله. فليس قليلاً أن يكون الشعب على استعداد قلبى لتقديم حتى العيون.

هكذا ينبغى أن تكون رباطات الحب. خلواً من شكل العالم الذى تتحكم فيه الذات والأنانية والمصلحة الشخصية.

هذا الحب الصافى منبعه صليب ربنا يسوع.. الحب الذى بلا غرض والمُنزّه عن الجسدانيات والماديات.. والذى نصلى أن يملأ الكنيسة ويعطرها بهذا العطر الإلهى.

فى الزهــد:

قال القديس بولس: «... فِي كُلِّ شَيْءٍ حَفِظْتُ نَفْسِي غَيْرَ ثَقِيل عَلَيْكُمْ، وَسَأَحْفَظُهَا» (٢كو ١١ : ٩). لم يستعمل سلطانه الذى تكلم عنه بالتفصيل وقال: «أَلَعَلَّنَا لَيْسَ لَنَا سُلْطَانٌ أَنْ نَأْكُلَ وَنَشْرَبَ. أَلَعَلَّنَا لَيْسَ لَنَا سُلْطَانٌ أَنْ نَجُولَ بِأُخْتٍ زَوْجَةً» (١كو ٩ : ٤ ، ٥). وقال: «مَكْتُوبٌ فِي نَامُوسِ مُوسَى لاَ تَكُمَّ ثَوْرًا دَارِسًا. أَلَعَلَّ اللهَ تُهِمُّهُ الثِّيرَانُ؟» (١كو ٩ : ٩). ولكن هذا المكتوب فى العهد القديم كان مكتوباً عن الحصادين والعاملين فى الحصاد الإلهى. وأن الله رسم «أَنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَ (يكرزون) بِالإِنْجِيلِ، مِنَ الإِنْجِيلِ يَعِيشُونَ» (١كو ٩ : ١٤).

ولكنه بصفة شخصية قد تنازل بالكلية عن كل ما كان من حقه من قِبَلِ الله، إذ كان يتعب عاملاً بيديه نهاراً وليلاً بكد وتعب ليعول نفسه والذين معه.. وشهد لكهنة أفسس «أَنَّ حَاجَاتِي وَحَاجَاتِ الَّذِينَ مَعِي خَدَمَتْهَا هَاتَانِ الْيَدَانِ» (أع ٢٠ : ٣٤). وقال: «فِضَّةَ أَوْ ذَهَبَ أَوْ لِبَاسَ (ثياب) أَحَدٍ لَمْ أَشْتَهِ» (أع ٢٠ : ٣٣).

يا للعجب: حتى مجرد شهوة الأمور المادية فى يد المخدومين لم تأت عليه! غاية فى السمو الروحى. أليس هو الذى حلّق فى السموات ورأى «أموراً لاَ يَسُوغُ لإِنْسَانٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا» (٢كو ١٢ : ٤). إذن الزهد هنا جاء من الغنى الداخلى والتمتع بالنعمة وغنى المسيح الذى لا يستقصى.

فإن امتلكت يد الإنسان مقاليد الكنوز السماوية.. ألقى عنه كل الغنى الغير يقينى بكل سهولة. فياليت الرعاة الطالبين ملكوت الله يمتلئون من الغنى السماوى فيصيرون أمثلة للرعية.

العاملون معه:

أما من جهة أولاده الذين خدموا معه وتحت مظلة أبوته الحانية، فيتعجب الإنسان أى تعجب حينما يرى كيف كان يتعامل معهم أو يتكلم عنهم لدى الكنائس والأفراد.

+ يقول لأهل كورنثوس: «وَلكِنْ لَمَّا جِئْتُ إِلَى تَرُوَاسَ، لأَجْلِ إِنْجِيلِ الْمَسِيحِ، وَانْفَتَحَ لِي بَابٌ فِي الرَّبِّ، لَمْ تَكُنْ لِي رَاحَةٌ فِي رُوحِي، لأَنِّي لَمْ أَجِدْ تِيطُسَ أَخِي» (٢كو ٢ : ١٢ ، ١٣).

وانظر وتعجب.. تيطس تلميذه وابنه ولكنه يدعوه أخى.. إلى هذا الحد لم ترتح روح القديس بولس لأنه افتقد وجود ابنه؟ لقد كانت روحه العالية ترتاح فى المحبة وتتآزر بها. لما رجموه مرة وظنوا أنه قد مات إذ أحاط به التلاميذ قام! هذه قوة القيامة العاملة فى مؤازرة القديسين.

+ وعن أبفرودتس وهو تلميذ القديس بولس.. يقول لأهل فيليبى: «أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ أَبَفْرُودِتُسَ أَخِي، وَالْعَامِلَ مَعِي، وَالْمُتَجَنِّدَ مَعِي، وَرَسُولَكُمْ، وَالْخَادِمَ لِحَاجَتِي» (فى ٢ : ٢٥). بكل هذه الأوصاف الروحية العالية يقدم لهم ابنه.

عظيم هو هذا الروح الذى ملأ القديس بولس الرسول لكى يظهر هذه المشاعر الروحية، والسلوك الراقى فى العلاقات حتى مع أولاده! فهو أخى والعامل معى وهو رسولكم.

إن هذا لا يقلل إطلاقاً من قامة الرسول ومكانته العالية، بل على العكس يظهره أكثر لطفاً وحباً وكرماً وشهامة. أما أن يحقّر الإنسان أو الخادم أو الكاهن الأصغر، ويحط من شأنهم لكى يظل هو الكبير. فهذا السلوك ضد الإنجيل وضد روح الرسل الأطهار.

+ كان أبفرودتس مشتاقاً أن يأتى إليكم وكان مغموماً لأنكم سمعتم أنه كان مريضاً. هذه المشاعر الراقية فى السلوك المسيحى ما أبدعها.. لما سمع أن أهل فيلبى علموا بمرضه اغتم!!

العرف السائد فى العالم أن الإنسان ينتظر من الناس مواساته فى حال ألمّ به المرض أو أى نائبة من النوائب، ويحزن ويكتئب أن هذا أو ذاك لم يواسيه فى مرضه أو لم يسأل عنه فى محنته. ولكن سلوك أبفردتس هو السلوك العالى الروحى.. هو مستعد أن يخدم ويبذل ويعطى وليس عنده حاجة أن يأخذ.. لقد اغتم أنهم سمعوا بمرضه.. يا للعجب.

ويقول القديس بولس الرسول أن أبفرودتس «مَرِضَ قَرِيبًا مِنَ الْمَوْتِ، لكِنَّ اللهَ رَحِمَهُ. وَلَيْسَ إِيَّاهُ وَحْدَهُ بَلْ إِيَّايَ أَيْضًا لِئَلاَّ يَكُونَ لِي حُزْنٌ عَلَى حُزْنٍ» (فى ٢ : ٢٧). لم تُلغَ المشاعر البشرية عند القديسين.. بل تقدست. فلما مرض أبفرودتس كان حزن عند القديس بولس.. وكانت صلاة، وقد يتساءل الإنسان.. لماذا لم يشفه القديس بولس الرسول؟ إنه شفى أمراض كثيرين بل وأقام موتى.. لا تحصل المعجزات جزافاً كأنها بلا هدف.. بل تحدث بحسب مشيئة الله ولقصد، وتدبير بعيد عن أفكار الناس. فلما رحم الرب أبفرودتس وعوفى من مرضه، قال القديس بولس: إن الرب رحمنى أنا لكى لا يكون لى حزن على حزن.

فالذين يفتكرون فى القديس أفكار خيالية يجانبون الصواب.. لقد عبّر القديس بولس الرسول بصدق عما يربطه من حب للعاملين معه فى حقل الخدمة.. فحزنهم حزنه وفرحهم فرحه فى الرب. وقد اهتم بأحوالهم بالتدقيق، فأوصى تلميذه تيموثاوس من أجل معدته وأمراضه الكثيرة أن يستعمل خمراً قليلاً.. وقد حذرهم من الناس الأشرار والخدّاعين ووعّاعم من السالكين بعيداً عن الروح.. وقال: «أَعْرِضْ عَنْ هؤُلاَءِ» (٢تى ٤ : ٥).

ثم يكشف القديس بولس الرسول أن أبفرودتس «مِنْ أَجْلِ عَمَلِ الْمَسِيحِ قَارَبَ الْمَوْتَ، مُخَاطِرًا بِنَفْسِهِ، لِكَيْ يَجْبُرَ نُقْصَانَ خِدْمَتِكُمْ» (فى ٢ : ٣٠).

فالقيم العالية الروحية التى كان يتحلى بها أبفرودتس، وكذا كل العاملين مع القديس بولس، هى فى الواقع ثمرة تلقائية لتبعيتهم للقديس بولس إذ رأوا فيه الكمال المسيحى من جهة الشهامة والبذل التطوعى والخدمة حتى النَّفَس الأخير «بِمَجْدٍ وَهَوَانٍ، بِصِيتٍ رَدِيءٍ وَصِيتٍ حَسَنٍ» (٢كو ٦ : ٨). فى الأخطار والأهوال والاضطهادات.. وكيف أن من جميعها نجاه الرب. فرأوا فيه النموذج الحى الذى يجب على الخادم أن يتبعه ويتمثل به «كُونُوا مُتَمَثِّلِينَ بِي كَمَا أَنَا أَيْضًا بِالْمَسِيحِ» (١كو ١ : ١١).

وهكذا قد سلم القديس بولس هذه الروح الرسولية والإدراك الحقيقى لمعنى الكنيسة بكل أعضائها كجسد المسيح الواحد، سلمه لأولاده وأوصاهم به.

اسمعه يوصى القديس تيموثاوس «لاَ تَزْجُرْ شَيْخًا بَلْ عِظْهُ كَأَبٍ، وَالأَحْدَاثَ كَإِخْوَةٍ، وَالْعَجَائِزَ كَأُمَّهَاتٍ، وَالْحَدَثَاتِ كَأَخَوَاتٍ، بِكُلِّ طَهَارَةٍ» (١تى ٥ : ١ ، ٢).

القديس تيموثاوس وهو أسقف وتلميذ القديس بولس كان صغير السن، ولكنه مشهود له من الكنيسة كلها. سلمه القديس كيف يتعامل مع الرجال الكبار حتى إن رأى أو سمع من أحدهم ما لا يوافق أو ما لا يليق – لا تزحر شيخاً: نوع من الأدب المسيحى واللياقة.. ولكن بدون تجاوز للحق – عظه كأب.. اعتبره أبوك وكلمه بكلام للبنيان. أنت كأب وأسقف فى الروح وهو كأب وشيخ متقدم فى الأيام..

إن تزجره بغضب تسئ إليه وإلى نفسك، وإن تكلمه بكلام وعظ وتعزية تكسبه وتكسب نفسك.

– أما الأحداث فى الكنيسة: هم أولادك اقترب منهم كأخوتك أعطهم نفسك مثالاً بالحب قربهم إليك بروح الوداعة واللطف بدون تعال أو كبرياء.

– العجائز كأمهات. لقد رأى القديس تيموثاوس فى القديس بولس هذا المثال حياً معاشاً حين يسلم على واحد من أحبائه ويقول أمه أمى.

وحين يتعامل مع السيدات فى الكنيسة بهذه القيمة العالية ممجداً صفة الأمومة فى الكنيسة ومعتبراً كل واحدة كأمّه، تتنامى فى الكنيسة الفضائل والاحترام والتوقير. ألم يقل الرب يسوع: «مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ اللهِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي» (مر ٣ : ٣٥).

– «وَالْحَدَثَاتِ كَأَخَوَاتٍ، بِكُلِّ طَهَارَةٍ» . وهذه أغلى الوصايا. الشابات فى الكنيسة ينظرون إليك كأب ويحبون المسيح فيك، عاملهم كأخوات. وهنا وضع الرسول بولس شرطاً أساسياً «بكل طهارة».. لقد أوصى تلميذه من جهة هذا الأمر بقوة وحزم روحيين، لكى يحفظ نفسه وعقله وفكره وجسده.

ونرى فى كل أجيال الكنيسة حين أهملوا هذه الوصية الرسولية، كيف صال الشيطان وجال وجرَّ على الكنيسة الخراب والدمار!

ليت الله ينير لنا الطريق بهذا النموذج العالى فى الخدمة والمحبة.